

مقدمة:

حاول الإنسان، منذ المجتمعات البشرية البدائية، تفسير ما يكتنف محيطه من أسرار، وإدراك ما يحدث في الطبيعة من مظاهر غريبة، فنشأت بذلك الطقوس التي تمظهرت في البداية في أشكال من الحركات والرقصات والتعاويد والقرايين، مارسها الإنسان قصد ضبط توازنه وتناغمه مع الطبيعة، "فيشعر بمزيد من الطاقة تؤهله لتحمل مشاق الحياة أو قهرها" (Durkheim, 1985, p595)، كما قال إميل دوركهايم.

يتميز الإنسان بكونه كائناً ثقافياً وطقوسياً، وتعتبر الطقوس إحدى أبرز السمات الثقافية التي تشكّلت عبر تاريخ المجتمعات، ولعلّ من أبرزها طقوس العبور التي ما فتئت تكشف عن أسرارها من خلال أعمال الباحثين، منذ أول دراسة أجريت حولها مع مطلع القرن العشرين. فما هي طقوس العبور؟ وماهي أسرارها ومضامينها؟ وكيف اكتشفت؟ وكيف تطوّرت؟.

هذا ما سنحاول أن نجيب عنه ونتطرّق له في هذا المقال، بداية بتحديد مفهوم طقوس العبور لغة واصطلاحاً، وبيان أصلها، ثمّ الاطلاع على مُبتكر مفهومها وواضع نظريّتها، وتعرّض لخصائصها ومختلف تقسيماتها وأنواعها، ثمّ نختم المقال بالحديث عن طقوس العبور في المجتمعات الحديثة.

1- مفهوم طقوس العبور:

أ- المعنى اللغوي:

إنّ حادثة هذا المفهوم يغنينا عن الرجوع إلى القواميس اللغوية العربيّة، سواء منها القديمة أو المتأخّرة؛ ولكن هذا ما يضطرّنا إلى تفكيكه.

● **الطقوس:** لم ترد كلمة الطقس في معاجم اللغة العربية القديمة، مثل "لسان العرب" لابن منظور، أو "مقاييس اللغة" لابن فارس، أو "تاج العروس" للزبيدي، أمّا "المعجم الوسيط" الذي هو من القواميس الحديثة، فشرح الطقس على أنّه يفيد النظام والترتيب، كما يعني أيضاً نظام الخدمة الدينيّة أو شعائرها واحتفالاتها (عند النصارى)، والطقس يستعمل أيضاً بمعنى: حالة الجوّ أو المناخ وهي مفردة (محدثة) تجمع على طقوس (أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، 1990، ص 561).

● **العبور:** حسب "المعجم الوسيط"، العبور مصدر الفعل "عَبَرَ"، ودلالات الفعل مختلفة وهي كما يلي: عَبَرَ النهر عبراً وعبوراً: قطعه من شاطئ إلى آخر، وعَبَرَ الطريق: قطعه من جانب إلى جانب، وعَبَرَ فلان: جرّت عبرته أي دمعته، وعَبَرَ القومُ: ماتوا، وعَبَرَ الكتاب: تدبّره في نفسه ولم يرفع صوته بقراءته، وعَبَرَ المتاعَ والدراهمَ: نظر كم وزنها وقيمتها، وعَبَرَ الرؤيا: فسّرها، والعبور من الغنم: ما كانت فوق الفطيم من الإناث، و"الشعري العبور": أحد نجمين بجوار الجوزاء (أنيس وآخرون، ص 580).

أمّا منجد "اللغة والأعلام" فيشرح الفعل "عَبَرَ" كما يلي: عَبَرَ السَّبِيلَ عَبْرًا وَعَبُورًا: مَرَّ كَأَنَّهُ شَقَّهَا وَقَطَعَهَا، وَعَبَرَ: مَاتَ وَمَضَى، وَعَبَرَ النَهْرَ أَوِ الْوَادِي: قَطَعَهُ وَجَاذَهُ، وَعَبَرَ بِهِ الْمَاءَ: جَاذَ، كَمَا أَنَّ الْعَابُورَ هِيَ: أَسْرَابُ الطَّيُورِ الْعَابِرَةِ الَّتِي تَمَرُّ فِي بِلَادٍ وَلَا تَقِيمُ فِيهَا إِلَّا مَدَّةً قَصِيرَةً (البستاني وآخرون، المنجد في اللغة والأعلام، 1986، ص484).

فمعنى "العبور" لغة هو: القطع والشق والاجتياز، ويفيد بذلك معنى الانتقال. وإذا جمعنا المعنى اللغوي لكل من "الطقس" و"العبور" نخلص للمعنى التالي: طقوس العبور: جميع الأفعال والحركات والأقوال والترانيم والسلوكات التي يمارسها الأفراد أو الجماعات عند الاجتياز والانتقال، وتتسم بالتكرار والثبات. والشيء الملاحظ أنّ المعاجم اللغوية العربية ركزت في شرح مفردة "العبور" على المعنى المكاني فقط، دون المعنى الزماني الذي يتضمنه المصطلح في الدراسات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية كما سنرى.

وفي معاجم اللغة الأجنبية، نأخذ معجم "لاروس" (*Larousse*) كنموذج: طقوس العبور (*Rites de passage*): "مجموعة الطقوس والمارسم الاحتفالية التي يعبر فرد من خلالها وينتقل من جماعة إلى أخرى. مثلا: من فئة عمرية إلى أخرى (من الطفولة إلى المراهقة)" (*Larousse*, p674).

ب- المعنى الاصطلاحي:

ذكرت مارتن سيغالان (*M. Segalen*) أنّ علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية عرّفوا الطقوس بأنها "مجموعة حركات سلوكية متكررة، يتفق عليها أفراد المجتمع، وتكون على أنواع وأشكال مختلفة، تتناسب والغاية التي دفعت الفاعل الاجتماعي أو الجماعة للقيام بها" (*Martine Segalen, 1998, p8*).

وجاء في "موسوعة علم الاجتماع" عند تعريف "طقوس العبور" ما يلي: "الشعائر المرتبطة بالانتقال من مرحلة الطفولة إلى مرحلة البلوغ، أو الانتقال من طبقة من طبقات العمر إلى طبقة أخرى، أو الدخول في عضوية الجماعات السرية، وقد أثرت عناصر موضوع التكريس على دراسة فان جنيب لشعائر الانتقال (المرو). وعادة ما تنطوي شعائر التغير في المكانة من الطفولة إلى البلوغ على تغير فيزيقي، مثل: الختان. وقد تنطوي على طرق أخرى تتمثل في التعريض للألم والإذلال، وعادة ما ترتبط الشعائر الخاصة بالإناث والسيدات بتحكّم الرجال في قدراتهنّ التناسلية." (سكوت ومارشال، موسوعة علم الاجتماع، 2011، ص341).

وفي "قاموس علم الاجتماع" نجد التعريف التالي: طقوس المرور أو شعائر المرور: "... تتابع الطقوس في العالم كلّها عندما يحدث الانتقال في المجتمع البسيط من حالة إلى أخرى، سواء عندما تتغير المنزل الاجتماعية للفرد، أو عندما تحدث تغيرات طبيعية، أو تغيرات في شؤون المجتمع المحلي." (الجوهري، 1998، ص143-144).

ونلاحظ أنّ هذا التعريف يحصر طقوس العبور في المجتمعات البسيطة أو المحلية دون غيرها.

في حين يعرفها "معجم علم الاجتماع" بأنها "الخطوات أو الإجراءات التمهيدية التي تنطوي عادة على مراسيم احتفالية وطقوس شعائرية، وتنتهي بدخول المرء كعضو في جماعة، وانتمائه إلى فئة اجتماعية معينة، مثلما تضمن تمتعه بامتيازات محددة، وتشير إلى كونه قد أصبح عضواً كامل العضوية، أو عضواً راشداً في الجماعة أو المتحد الجماعي." (أبو مصلح، 2006، ص302)، ويبدو هذا التعريف شاملاً، ومركّزاً على الجانب الاجتماعي لطقوس العبور.

ويحددها "معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا" كما يلي: "حسب مراحل حياة الفرد تكون هناك مراحل طقوسية تتوأكب مع مراحل حياته فالميلاد هو المناسبة الأولى، وسنّ النضج يتوافق مع طقوس المساة، وكذلك الزواج، وطقوس الأب والأم، وأيضا طقوس الموت." (بونت وآخرون، 2011، ص302) وكذلك يحددها العالم الأنثروبولوجي البريطاني إدوارد إيفانز بريتشارد (E.E. Printchard) بالشكل نفسه، فيقول: "هي تلك الطقوس والشعائر التي تُمارس في حالة انتقال الفرد من مرحلة معينة في حياته الاجتماعية إلى مرحلة أخرى كما هو الحال مثلاً في الولادة والختان، والزواج والوفاة." (بريتشارد، 1960، ص 131-132).

نلاحظ من خلال هذه التعريفات، أنّ طقوس العبور أو شعائر الانتقال ملازمة لمراحل حياة الإنسان، وانتقاله من حالة أو وضعية لأخرى، غير أنّ بعض الباحثين يضيفون إليها مجالات أخرى مثل "التغيرات الكونية كتعاقب الشهور والفصول، وكذلك الاحتفالات الدورية والموسمية." (إبراهيم وآخرون، 2005، ص 345).

هذه بعض التعريفات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية لهذا المفهوم، لكن، ألا يجدر بنا أن نتساءل: ما أصل طقوس العبور؟ من أطلق هذا المفهوم لأول مرة؟ ولأيّ غرض؟ هذا ما سنحاول استقصاءه في ما يأتي، لعلنا حين نفعل ذلك نختصر طريقنا للإحاطة به وبمعانيه وأبعاده.

2- أصل مفهوم طقوس العبور (Rites de Passage)

استمدّ مفهوم "طقوس العبور" تسميته من العالم الإثنولوجي الفرنسي أرنولد فان جنيب (A. V. Gennep)، من خلال دراسة له صدرت عام 1909م حملت عنواناً لها المفهوم نفسه؛ فمن هو هذا العالم؟

أ- واضع مفهوم طقوس العبور:

ولد أرنولد فان جنيب في 23 من شهر نيسان (أفريل) سنة 1873م في مدينة لود فيغسبورغ Ludwigsburg بمقاطعة أتورمبورغ Wurtemberg بألمانيا، كان والده مهاجراً فرنسياً، أمّا والدته فكانت من أصول هولندية، حين بلغ السادسة من عمره انفصل والده، فرافق أمّه التي غادرت ألمانيا إلى مدينة ليون Lyon الفرنسية، وهناك ارتبطت بزواج فرنسي، وبسبب ظروف عمله انتقلت الأسرة لتعيش في مدينة شال لي زو Challes-les-Eaux في منطقة لاصافوا La Savoie التي شغف بها فان

جنيب وطاف بأنحاءها مشيا على قدميه.

التحق بداية -وهو صبي- بإحدى مدارس ليون لكن سرعان ما غادرها في سن العاشرة إلى إحدى المدارس في باريس؛ ثم واصل تعلّمه الثانوي في مدرسة داخلية في مدينة نيس *Nice* حين انتقل والداه للعمل في جنوب فرنسا. وكثيرا ما كان يقول عن مشواره الدراسي أنّه تحصّل فيه على درجات سيّئة عن سلوكه وعدم انضباطه، في حين كانت درجاته في المواد العلميّة جيّدة باستثناء مادّة الرياضيات.

رغب فان جنيب في دراسة الفولكلور أملا أن يجد مكانا في جامعة السوربون، لكن أمله خاب لما اكتشف أنّ هذه الجامعة لا تدرّس هذا الاختصاص، فاتّجه إلى المدرسة التطبيقية للدراسات العليا، حيث زاول دراساته العليا، فتحصّل بها على تكوينه في الإثنولوجيا، كما درس هناك العديد من اللغات ومنها اللغة العربيّة. وبدءا من عام 1897م تابع دروس السنسكريتيّة • على يد عالم اللسانيات الفرنسيّ أنطوان مايي (*A. Mailliet*)، ودروس الديانات البدائية على يد الفيلسوف وعالم الديانات الفرنسيّ ليون ماريلي (*L. Marillier*) وقد قام بربط صلات خاصّة مع رائد الأنثروبولوجية الفرنسيّة مارسال موس (*M. Mauss*) والسوسيولوجي الفرنسي هنري هوبير (*H. Hubert*) اللذين سيصبحان مستقبلا مشرفين على فرع الإثنولوجيا في مدرسة علم الاجتماع الفرنسيّة.

عرف فان جنيب تقاربا من "جماعة طابو-طوطم" التي كان من اهتماماتها ما سيدعوه إميل دوركهايم سنة 1912م بـ "الأشكال الأولى للحياة الدينيّة"، إلّا أنّ ذلك لم يمنعه من انتقاد "إميل دوركهايم" لعدم تحلّيه -حسبه- بالموقف النقديّ في عمله ذاك، فهو يرى أنّ دوركهايم تجاهل الفرد ودوره مقابل تقديمه دورا مبالغاً فيه للجماعة؛ كما انتقد أيضاً رؤيته للسكان الأصليين في أستراليا، التي تصنّفهم كمجتمعات بدائيّة تقليديّة بسيطة، في حين أنّ هذه المجتمعات ومعتقداتها الدينيّة - كما يرى- على درجة عالية من التعقيد.

نتيجة لانتقاداته تعرّض أرنولد فان جنيب إلى تهمة قاس من قبل أقطاب مدرسة "الحوليات الاجتماعيّة" التي كان يتزعمها إميل دوركهايم آنذاك، فحال ذلك دون تمكّنه من الالتحاق بالتدريس في أيّ من المؤسّسات الأكاديميّة الفرنسيّة، ثمّ تلا ذلك فقدانه لمنصبه الأكاديمي في جامعة نوشاتيل *Neuchâtel* بسويسرا، بسبب آرائه الصريحة المناهضة لألمانيا خلال الحرب العالميّة الأولى، علما بأنّ سويسرا كان موقفها من الحرب حياديّا.

على الرغم من عدم تمكّن فان جنيب من تحقيق مستقبل أكاديمي ناجح، فقد كان باحثاً

• السنسكريتيّة: "لغة قديمة في الهند، وهي لغة طقوسيّة للهندوسيّة والبوذية، لها موقع في الهند وجنوب شرق آسيا مشابه للغة اللاتينيّة واليونانيّة في أوروبا في القرون الوسطى، وقد لاحظ هذا الشبه عالم اللسانيات البريطاني ويليام جونز (*W. Jones*) حيث كان يشغل قاضيا هناك، ولهذه اللغة مكانة رمزية في التقليد الهندوسي، وهي إحدى اللغات الرسميّة الاثنتين والعشرين في الهند، وتدرّس هناك كلغة ثانية، وهي إحدى أقدم اللغات التي أنتجت تراثا دينيا وأدبيا وعلميا مدونا". (المعرفة www.marifa.org)

متميّزاً، بدأ بدراستين إثنوغرافيتين، تناولت الأولى "الطوطمية في مدغشقر" 1903م والثانية "الأساطير الأسترالية" 1906م وقد أنجزهما وفق النمط الفرنسي في تلك الحقبة الزمنية، انطلاقاً من الأدب الإثنوغرافي، لم يجمع محتوياتها بنفسه، لكنّه مع دراسته المشهورة "طقوس العبور" *Rites de passage* غامر بالخوض في أطروحة أكثر طموحاً، نشأت فكرتها -كما عبّر- من "إشراقة" *"illumination"* (جورني، ص 111-112).

ب- "طقوس العبور" كما يراها "أرنولد فان جنيب":

منذ إدوارد تايلور وجيمس فريزر اللذين أسّسا علم الطقوس المقارن، اهتمّ العلماء الإثنولوجيون والأنثروبولوجيون بجدد الطقوس، وفحص أشكالها وآلياتها، وسبر مضامينها، ومقارنتها وتصنيفها في زمر متقابلة، من ذلك أنّهم يضعون الطقوس "المحبّبة" مقابل الطقوس "المنقّرة"، والطقوس المباشرة السحرية مقابل الطقوس غير المباشرة اللاجئة للآلهة، والطقوس الإيجابية المسموح بها مقابل الطقوس السلبية المحرّمة؛ لكن القليل من الباحثين في هذا الميدان أولوا اهتماماً إلى فكرة أنّ الممارسات السحرية والأفعال الدينية، سواء منها القديمة أو الحديثة، تمارس وفقاً لنظام، وتبعاً لترتيب معيّن، وأنّ أهميّة تسلسلها ونسقتها لا تقلّ عن أهميّة محتواها ومضمونها، وهنا يبرز أرنولد فان جنيب، حين تجلّت له هذه "الإشراقة"، ليميّز فئة معيّنة من الطقوس التي لاحظها تصاحب كلّ انتقال وتغيّر في حياة الفرد في مجتمعه، تغيّر العمر والحالة والموقع الاجتماعي وكذلك المكان. تلکم هي طقوس العبور (جورني، ص 111-112).

وقد دوّن ملاحظاته، وطوّرها إلى نظرية متكاملة، نشرها في كتاب يحمل عنوان: "طقوس العبور" *Rites de passage* صدرت الطبعة الأولى له سنة 1909م. ثمّ بعد عدّة دراسات في مجال الطقوس والعادات الشعبية، أنتج عملاً ضخماً حول الموضوع نفسه، أصدره في ثمانية مجلّدات، ظهرت تباعاً، وتجاوز عدد صفحاتها ثلاثة آلاف صفحة، يحمل عنوان: "مدخل لدراسة الفولكلور الفرنسي المعاصر" *Manuel de folklore français contemporain*. (أبوزيد وآخرون، 1972، ص 291).

وتتلخّص نظرية فان جنيب "لطقوس العبور" في أنّ الفرد في المجتمع حين ينتقل من مرحلة إلى أخرى في حياته الاجتماعية، ينخرط في مجموعة من الطقوس والشعائر، تمارس بشكل فرديّ أحياناً وجماعيّ أحياناً أخرى، كما هو الحال في الولادة والختان والبلوغ (المسارّة) والزواج والوفاة. وقد تتبّع الباحث هذه الشعائر في عدّة مجتمعات، واكتشف فيها سرّاً يتمثّل في نظام وتسلسل يطبع هذه الطقوس بشكل دائم في معظم المجتمعات، فبيّن أن الانتقال من وضع لآخر يتمّ وفق ثلاث خطوات:

الخطوة الأولى: ينفصل فيها الفرد من بيئته القديمة ومن مستواه الاجتماعي، وتصاحب ذلك طقوس وشعائر خاصّة تعرف باسم "شعائر الانفصال".

الخطوة الثانية: يكون فيها الفرد في حالة محايدة، لا ينتمي أثناءها إلى أيّ وضع اجتماعي، ولا يعرف له مركز اجتماعيّ محدّد، ويحظر عليه غالبا أثناء تلك الفترة الاتّصال بالناس والعالم، إلّا وفق ضوابط مرسومة، وتُعرف الطقوس والشعائر التي تمارس في هذه المرحلة بالشعائر الهامشيّة، نظرا لكون الفرد يعيش آنذاك على هامش الحياة الاجتماعيّة، في وضعيّة انتقاليّة. الخطوة الثالثة: ينتقل فيها الفرد إلى البيئة الجديدة والمستوى الاجتماعي الجديد، في وضع مختلف عن وضعه الأول، وتصاحب هذه الخطوة طقوس وشعائر خاصّة تعرف بشعائر الاندماج. (Voir : van Gennep, 1969.)

هكذا قسّم أرنولد فان جنيب طقوس العبور التي تصاحب الانتقال حسب العمر أو الحالات والمواقف والمكان إلى ثلاثة مراحل: الانفصال- الهامش- الاندماج، وهذه المراحل حسبته تعكس "تتابع مسار الحياة وسيورتها من المهد إلى اللحد، ويمكن التعبير عنها بأنّ الفرد يكون - أثناءها- معلقا بين السماء والأرض" (van Gennep, 1943, p11). إنّ هذه الخطوات الثلاثة تبرز دائما -حسبه- عند أي انتقال أو تحوّل اجتماعي، وخاصّة عند المرور عبر المراحل الأربع الرئيسية من حياة الفرد: الميلاد- البلوغ- الزواج- الوفاة: "ولقد برهن فان جنيب أنّها تخضع لمنطق عالمي شامل مهما اختلفت مظاهرها" (تولرا و فارنييه، 2004، ص178).

فهي تتباين من حيث حجمها وثوراؤها فضلا عن مضامينها بتباين ثقافات المجتمعات ودرجة مدنيّتها؛ كما أنّها تختلف في ما بينها، "فطقوس الانفصال تكون أكثر وضوحا في الشعائر الجنائزيّة، وطقوس الاندماج تبدو واضحة في احتفالات الزواج، بينما تمثّل الطقوس الهامشيّة قسما هامّاً في فترة الخطوبة والحمل" (قاضي، 2006/2005، ص80).

ولعلّ أكبر الطقوس الهامشيّة حجماً وأكثر مضامينها ثراء هي تلك المرتبطة بمرحلة البلوغ أو "المسارّة" *Initiation* خاصّة في المجتمعات التقليديّة، و"المسارّة" كما يعرفها الإثنولوجيون هي مجموعة الطقوس التي تمارس في الفترة الانتقاليّة حيث يتمّ من خلالها عبور الأطفال ذكورا وإناثا ضمن مجموعات من مرحلة الطفولة إلى مرحلة النضج واكتساب الهوية الاجتماعيّة للأشخاص الراشدين، وهذه الفترة الانتقاليّة تمثّل منطقة حدوديّة فاصلة بين عالم الأطفال وعالم الراشدين، وهي بمثابة "هامش" يمرّ فيه الفرد، وبأفعال وممارسات غريبة أحيانا، لكنّها مقبولة اجتماعيّا، نظرا لطابعها المقدّس، بشيء يكاد يكون موتاً يتبعه بعث جديد.

من هنا ندرك أهميّة الفترة الهامشيّة في طقوس العبور، وبصفة خاصّة أثناء طقوس البلوغ أو المسارّة، إذ يضحي للطقس دور هامّ وبارز ومؤثّر يتمثّل في "خلق إنسان جديد" يحمل - غالبا- اسما جديدا ومواصفات مختلفة عن سابقتها؛ إنّ ثنائيّة "الموت-البعث" تبرز بشكل واضح وأساسي في الطقوس المصاحبة للمرحلة الهامشيّة. (تولرا، فارنييه، ص178-179).

كما أنّ هناك اعتقاد سائد في المجتمعات التقليدية أنّ قوى الشرّ تزداد خطورة في فترات الانتقال، عند الميلاد والزواج والموت والسفر، وتعاقب السنين، والانتقال من فصل إلى آخر، ومن مكان إلى آخر. وسبب ذلك خوف يستشعره الإنسان من كلّ ما هو جديد؛ فلذلك -مثلاً- تطلق الأعيرة النارية في ليلة رأس السنة وفي ليالي الأعراس، كما تنقر فيها الدفوف ويحرق البخور، ولا ينطق باسم المولود الذي لم يختن أو يعمّد بعد، ولذلك أيضاً تقاد المرأة العروس مغطّاة ومحجّبة الوجه إلى بيت الزوجية ليلة زفافها (أبوزيد وآخرون، ص 297).

من خلال مخطّط فان جنيب الثلاثي الذي يتضمّن الأزمنة الثلاثة:

– "قبل العتبة" *Preliminair*

– العابر "على العتبة" *Liminaire*

– الصائر "بعد العتبة" *Past liminaire*

نجدّه يوسّع دائرة طقوس العبور وينشئ صورة أكثر وضوحاً عنها، لتشمل طقوس الفلاحة الموسمية (طقوس الخصب)، وأعياد التقويم السنوي، وطقوس التطهير، واحتفالات الختان والتعميد والزواج، واحتفالات الوصول إلى وظيفة، وطقوس اجتياز الأماكن، إلى غير ذلك. وإذا أخذنا هذه الأخيرة كمثال، فهو يوضّح بشأنها أنّه في أماكن كثيرة من العالم، كانت أبواب المدن وحدود الأرض والتخوم الفاصلة تمتلك قداسة، وبالتالي يستدعي عبورها "كافة أنواع المحاذير" وطقوساً تمارس لتجنّب التعرّض لأيّ خطر (جورني، ص 112-113).

ويذهب فان جنيب بعيداً في خياله حين يصوّر المجتمع منظّماً ومفصّلاً، تماماً مثل منزل يحتوي على حجراتٍ وأروقة وممرّات، الخروج والدخول من زمرة إلى أخرى فعلاً يتّمان باحتكاك وسلوك طقسيّ، يخضع لشعائر مرتبطة دوماً بالمقدّس بدرجات متفاوتة (جورني، ص 112-113).

3- تقسيمات طقوس العبور:

من خلال قراءتنا حول الموضوع، يمكن أن نستخلص التقسيمات التالية:

أ- طقوس العبور المرتبطة بالزمن:

هي تلك الطقوس والممارسات التي تقام عند الانتقال عبر الزمان، وتضمّ المجموعتين التاليتين:

– طقوس الانتقال من فترة لأخرى من حياة الفرد في المجتمع، وهي تواكب تطوّر عمره، وتجمع المراحل الرئيسية (الميلاد – البلوغ – الزواج – الوفاة)، بالإضافة إلى مراحل ثانوية تتخلّلها، مثل: تسنين الطفل، وخطواته الأولى، وأوّل دخول مدرسيّ.

– الطقوس الدورية الموسميّة الخاصّة بتعاقب السنوات والفصول والشهور والأيام، وما يصاحبها من احتفالات وأعياد وممارسات تعتمد عنصر الانتقال والتحوّل.

ب- طقوس العبور المرتبطة بالمكان:

هي الطقوس التي تمارس في حال الانتقال من مكان لآخر، أو عند عبور ممرات خاصة، وعند الأسفار، أو اجتياز حدود المدن والمقاطعات أو الدول، وعند الخروج أو الدخول من وإلى أماكن محدّدة، كبيوت الخلاء والمقابر والوديان وأماكن العبادة.

ج- طقوس العبور الدينيّة التقليديّة التعبديّة:

ونقصد بها تلك الطقوس والشعائر المتعلّقة بالديانات السماويّة التوحيدية الثلاثة: اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام، وتحتوي مختلف الممارسات التعبديّة الدوريّة. وإذا أخذنا الإسلام نموذجاً نجدها تتمظهر في مختلف العبادات، كالصلاة والزكاة والصيام والحجّ، بالإضافة إلى أفعال طقسيّة وممارسات أخرى كثيرة، كطقوس الختان والزواج والوفاة والمناسبات الدينيّة والأضحيات (أنظر: بوهاها، 2009). (بوشعالة)

د- طقوس العبور المتعلّقة بالمسار الدراسيّ التعليميّ:

هي تلك الممارسات التي تقام بصفة دوريّة في المؤسّسات التربويّة التعليميّة بمختلف أطوارها من رياض الأطفال والأقسام التحضيريّة إلى الجامعات، وتشمل طرائق الامتحانات والتقويمات للانتقال من مستوى تعليميّ لآخر، وكذلك اختبارات الشهادات ومختلف المسابقات، ومذكرات التخرّج.

وما مسار اجتياز شهادة الدكتوراه مثلاً إلاّ عبارة عن طقوس عبور "مضنيّة"، تخضع -دون ريب- للمخطّط الثلاثي نفسه الذي وضعه أرنولد فان جنيب، لعلّ أبرزها المرحلة الهامشيّة "المتعة والرهبة" في الآن ذاته.

هـ- طقوس العبور المتعلّقة بالأوضاع المهنيّة:

هي تلك الإجراءات والأفعال والسلوكات التي تمارس عند البحث عن عمل، وعند الحصول على وظيفة، وأثناء الترقّيات والانتقال من مركز أو مستوى اجتماعيّ أو اقتصاديّ أو سياسيّ لآخر؛ وفي هذا المجال، ألاّ تمثّل الانتخابات مرحلة هامشيّة، واجتياز عتبة الانتقال من حالة إلى أخرى في المجال السياسيّ؟.

و- طقوس العبور المتعلّقة بالمظاهر الطبيعيّة والأرض:

هي تلك الطقوس والممارسات التي تقام عند حدوث ظواهر طبيعيّة، مثل كسوف الشمس أو خسوف القمر، وعند ظهور بعض الأهلة أو النجوم، وأيضاً في أعمال الفلاحين المرتبطة بالأرض والفلاحة، كغرس النخيل والأشجار، وأعمال الحرث والبذر، والحصاد وجني الثمر والثمار، واستقبال المطر والسيول.

ويلاحظ أنّ الزمان والمكان حاضران في معظم تقسيمات طقوس العبور.

4- طقوس العبور والمجتمع الحديث:

مع مرور الزمن ودوران عجلة التاريخ، تطوّرت الشعوب وتعقّلت المجتمعات، وغطت عليها الفردانية والحرية، لكن يبدو أنّ العالم لم يفقد "سحره" أمام التفسيرات العلمية (*Le désenchantement du monde*) كما تنبأ بذلك ماكس فيبر (*M. Viber*) من قبل، بل ظلّت طقوس العبور بشحناتها السحرية، وتجلياتها الرمزية، ومضامينها القيمية محافظة على حضورها الدائم في الحياة الاجتماعية، وازدادت انتشاراً وتنوعاً كمظهر من أهمّ المظاهر الثقافية، كما طرأت عليها تعديلات واكبت التطور العلمي والتكنولوجي فيمكن ملاحظة طقوس العبور في المجتمع الحديث في كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية في مجالات مختلفة، نذكر منها:

- أ- الطقوس السياسية: مثل طقوس الانتخابات وتنصيب الرؤساء والمسؤولين واحتفالات الأعياد الوطنية.
- ب- الطقوس المدرسية التعليمية: مثل طقوس إجراء الامتحانات والمسابقات وتوزيع الشهادات والجوائز، وطقوس إعداد المذكرات وتقديمها ومناقشتها، واحتفالات التخرج ومراسم التكريمات.
- ج- الطقوس الرياضية: مثل طقوس إجراء المباريات والتظاهرات الرياضية، وتوزيع الكؤوس الميداليات.
- د- الطقوس الدورية: مثل طقوس الميلاد (في المستشفيات والعيادات) ومراسم الزواج وشعائر الموت والدفن، مع تعديلات طرأت عليها مع التطور العلمي.

قد تبدو طقوس العبور المعدلة والمستحدثة في المجتمعات الحديثة "العقلانية" بعيدة عن صميم الدين، ويتبادر بذلك إلى الذهن أنّها قد نأت بنفسها عن "المقدس" على خلاف المجتمعات التقليدية؛ لكن الأمر ليس كذلك، فالقداسة ظلّت دوماً ملازمة للطقوس، وإن بدت السلوكات الطقسية الحديثة مجردة منها، فهي تفرض وجودها على الأفراد الذين يلتزمون بها بدقة بالغة في كثير من الأحيان ولعلنا يمكن أن نقرّ بأنّ الطقوس تعرّضت "للعقلنة" في المجتمعات الحديثة دون أن يفقدها ذلك سحرها وقوّتها الرمزية بل أضفى عليها قداسية جديدة. بالإضافة إلى ذلك تبقى الوظيفة الرمزية للطقوس عامّة وطقوس العبور والانتقال خاصّة حاضرة دوماً مع قوّتها في إعادة إنتاج قيم المجتمع.

خاتمة:

في ختام هذا المقال، يمكن حصر نتائج البحث في النقاط التالية:

- مارس الإنسان، منذ المجتمعات البدائية، طقوس العبور، ليرسم مروره من زمن لآخر أو من حالة اجتماعية لأخرى مختلفة، وذلك دفعا لقوى الشرّ، ودرءا للفساد والضرر.

- يعتبر أرنولد فان جنيب (*A. V. Genep*) واضح مفهوم طقوس العبور، حين دَوّن ملاحظاته، وطوّرها إلى نظرية متكاملة، نشرها في كتاب يحمل عنوان: "طقوس العبور" *Rites de Passage* صدر سنة 1909م.

- تتلخّص نظرية "طقوس العبور" في أنّ الفرد في المجتمع حين ينتقل من وضع لآخر يخضع لنظام متسلسل وفق ثلاث مراحل: الانفصال- الهامش- الاندماج.

- تنقسم طقوس العبور إلى تقسيمات عديدة حسب الزمان والمكان والأوضاع الاجتماعية.

- ظهرت طقوس عبور جديدة في المجتمعات الحديثة مثل: الطقوس السياسية أو المدرسية أو الرياضية؛ كما أنّ الطقوس الدورية بقيت تمارس مع تعديلات طرأت عليها نتيجة التطور العلمي والتكنولوجي.

- رغم عقلنة المجتمعات الحديثة، ظلّت الطقوس – وإن طرأت عليها تعديلات- حاضرة في الحياة الاجتماعية، ومحافظة على سحرها وقداستها.

ظلّت الدراسات التي تناولت طقوس العبور أسيرة الإثنولوجيا لأمد طويل، ورغم ظهور بعض الدراسات السوسولوجية حولها بعد ذلك، إلّا أنّها لا تزال لم تكشف عن كلّ أسرارها ومكنوناتها.

مصادر ومراجع البحث:

- أولاً: باللغة العربية:

أ- المعاجم:

- 1- أبو مصلى، عدنان، (2006)، معجم علم الاجتماع، ط1، عمان، الأردن، دار أسامة.
- 2- أنيس، إبراهيم وآخرون، (1990)، المعجم الوسيط، ط2، بيروت، لبنان، دار الأمواج.
- 3- البستاني، كريم وآخرون، (1986)، المنجد في اللغة والأعلام، ط28، بيروت، لبنان، دار المشرق.
- 4- بونت، بيار، وآخرون، (2011)، معجم الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا، ط02، تر: مصباح الصمد، بيروت، لبنان، مجد.
- 5- سكوت، جون و مارشال، جوردن، (2011)، موسوعة علم الاجتماع، تر: محمد الجوهري وآخرون، المجلد الثاني، القاهرة، مصر، المركز القومي للترجمة.

ب- الكتب:

- 6- إبراهيم، عباس محمد وآخرون، (2005)، الأنثروبولوجيا، مداخل وتطبيقات، الإسكندرية، مصر، دار المعرفة الجامعية.
- 7- أبو زيد، أحمد وآخرون، (1972)، دراسات في الفولكلور، القاهرة، مصر، دار نشر الثقافة.
- 8- برينشارد، إدوارد إيفانز، (1960)، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، تر: أحمد أبو زيد، الإسكندرية، مصر، منشأة المعارف.

- 9- بوهاها، عبد الرحيم، (2009)، طقوس العبور في الإسلام، دراسة في المصادر الفقهية، ط1، بيروت، لبنان، دار الانتشار العربي.
- 10- تولرا، فيليب لابورت و فارنييه، جون بيار، (2004)، إثنولوجيا أنثروبولوجيا، تر: مصباح الصمد، ، بيروت، لبنان، مجد.
- 11- جورنه، نيكولا، (2014)، بين الكوني والخصوصي -البحث عن البدايات- طبيعة الثقافة- تشييد الهويات، دمشق، سوريا، دار الفرقد.
- 12- الجوهري، عبد الهادي، (1998). قاموس علم الاجتماع، ط63، الإسكندرية، مصر، المكتب الجامعي الحديث.
- 13- قاضي، فريدة، (2006/2005)، "عادات استقبال الطفل بين التقاليد والحداثة، السابع التسمية معتقد العين التقييم"، رسالة ماجستير في علم الاجتماع الثقافي غير منشورة، جامعة الجزائر، الجزائر.

ج- المواقع الإلكترونية:

- 14- بوشعالة، شكري، د.ت، الدين وطقوس العبور، دراسة مقارنة بين الرسائل السماوية، مؤمنون بلا حدود، مؤسسة دراسات وأبحاث، الرباط، المملكة المغربية، www.mouminoun.com
- 15- المعرفة، www.marifa.org

— ثانيا: باللغة الأجنبية:

- 16- Durkheim, Emile, (1985), **les formes élémentaires de la vie religieuse**, Paris, France, P.U.F.
- 17- Larousse, (1985), **Petit Larousse en couleur**, librairie Larousse.
- 18- Segalen, Martine, (1998), **Rites et rituels contemporains**, Paris, France, Edition Nathan.
- 19- van Gennep, Arnold, (1969), **les rites de passage**, paris, France, la Haye.
- 20- van Gennep, Arnold, (1943), **Manuel De Folklore Français contemporain, 1 du berceau a la tombe, naissance- enfance — adolescence — fiançaille**, paris, France, August picard.